إضاءة

نـزار قبـانـي.... الشـاعر الذي سـحر العالم بالكلمات

شاعر من دمشق الخالدة، استطاعت ليالي الهوى والغرام والهيام، أن تخلق منه شاعر متميزا استثنائياً، يداعب بألفاظه الرقيقة نفوس الشباب وعقول الناس.

وهو يمتاز بتخير اللفظة المرنة، والمعنى الحالم، فيلبسه ألوانا زاهية من أردية اللحن والموسيقى والعاطفة المتقدة.

بزغ في سماء دمشق في نهايات الحرب العالمية الثانية، نجم (نزار قباني) الذي هجر الطريقة القديمة في الشعر، ونحا منحى جديدا في التعبير عن عواطفه الهائجة وأمانيه العذاب، من خلال صياغة علاقة جديدة بين الرجل والمرأة، وفق هندسة إنسانية غير مألوفة.

كان من عوامل نجاح شعره، أنه جاء في مناخ نفسي ملٍّ فيه طلبة المدارس والمعاهد والجامعات ما يحشر في أذهانهم وفي دفاترهم من حكم ومطولات (زهير ابن أبي سلمى) وفخر (المتنبي) الجد الأكبر للشعراء العرب، ومدائح وتعقيدات (حبيب بن أوس الطائي)، ووصف (البحتري)، بالإضافة إلى ما كان مخيماً على نفوس الشباب والجيل الجديد، من ظلال القيود الاجتماعية الصارمة، ومن سحب السياسات الاستعمارية الغاشمة، والتخبط العشوائي للحكومات المحلية المتعاقبة على السلطة تجاه القضايا المصيرية الكبرى. فكانت المناسبة مواتية للشاعر، لأن يعزف لحناً جديداً على قيثارة شعر الهوى وتباريح الشوق، وهجران الحبيب أو الحبيبة، وليالي السهد والأرق، فيصور بريشة الرّسام المبدع، خلجات القلب الدافئة،

obeikandl.com

بطلاقة النفس وصراحة القول وحرية العصر دون تلعثم أو اضطراب.. فعزف شاعرنا ألحاناً، ونظم أشعاراً جريئة تقبلتها المرأة قبل الرجل، فكانت من دعاة هذه الأشعار ومن أنصارها. و(المرأة) عندما تدخل الفكرة المحببة إلى قلبها، دخولاً رقيقاً كعواطفها، سرعان ما تنشرها وتذيعها، وتدافع عنها بعناد، وتتغنى بمعانيها ومراميها ومفرداتها.

لقد عرف الشاعر هذه الناحية في عواطف الناس الجياشة، ناحية المحبة وسلطان الهوى والغرام، فأخذ يعزف ويوقع أشعاره على أوتارها.

وقلة هم الشعراء الأفراد الذين يستطيعون بصورة سلسة، صياغة عباراتهم المتميزة، ذات الخصوصيّة الفنية العالية، في عالم الشعر الجميل وآفاقه اللامحدودة، كما تصك الدول علاماتها الفارقة على أوراقها النقدية الورقية. لذلك لم يكن عفويا أن أطلق النقاد مقولة: (الأسلوب هو الرجل).

هذه الحالة الإبداعية والأناقة اللفظية، لا يجيدها إلاّ الشعراء الكبار، الذين لا يأتون إلى العالم، أو يظهرون في حياتنا العربية، إلاّ مرة واحدة في كل مئة عام، على حد تعبير الشاعر (ت.س. اليوت).

و(نزار قباني) شاعر الشام.. وشاعر الياسمين والورود النضرة.. وشاعر المرأة في حالتي العشق والاضطهاد، والصوت الجريء المدوي للإنسان المسحوق المحاصر، الذي لا صوت له، وشاعر العرب هو واحد من هؤلاء الشعراء الكبار على خارطة الشعر العربي المعاصر.

يكفي أن تعثر على قصاصة ورقية مهملة أو ضائعة على قارعة الطريق، أو في خزانة خشبية مهملة ورثتها عن والدك، حتى تعرف بسهولة ودون أدنى عناء أنها من كتابات نزار قباني، ومن قاموسه الشعري، ومن لغته التي استمدها من مفردات الأحاديث اليومية.

لقد خلق شاعرنا الكبير لغة خاصة به، كأنها أبجدية جديدة، وابتكر مفردات مدهشة وغير مألوفة ومطروقة في الشعر العربي القديم أو الحديث، مما أعطى لشعره العذب نشوة الشعر العظيم، وهذا البريق الخاطف في العيون الجميلة أو

الحزينة، وكذلك الانتشار الخرافي والذيوع الهائل في العواصم العربية كافة، وفي بعض العواصم العالمية...

ونذكر هنا استناداً إلى شهادة الأديبة المرموقة الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي، التي قامت – مشكورة – بترجمة مختارات شعرية حديثة لكوكبة من الشعراء العرب، من العربية إلى الإنكليزية، نذكر من هؤلاء الشعراء الكبار:

- **بدر شاكر السياب.**

- **أدونيس.**

- **محمود درويش.**

- **نزار قباني.**

فكانت المفاجأة الكبيرة تتلخص بأن الشعراء الكبار لم ينجحوا أبداً عند الترجمة. وقابل القراء في الولايات المتحدة الأمريكية أعمالهم الشعرية- التي أعجبت القراء العرب إعجاباً لا مثيل له، بفتور ودون اكتراث يُذكر، وبحيادية تامة. طبعاً الذي نجح في الامتحان الصعب في (الإنكليزي) نجاحاً لا يقل عن نجاحه (بالعربي) كان (نزار قباني). وكانت أشعاره المترجمة إلى الإنكليزية، هي أشعاره في الحب، وليس الأشعار السياسية، أو التي يهاجم بها المرأة، وهذا يعني أن الشعر الإنساني، للوصول إلى العالمية، يجب أن يكون شمولياً، وكلما خاطب عواطف الإنسان الدائمة، وتجارب الإنسان الدائمة عبر القرون، في أي وقت وأي زمن، وأية لغة وأية حضارة، هذا الشعر يكون هو الأنجح كما صنع شاعرنا.

لقد أراد (نزار قباني) منذ العام /١٩٤٤/، حين أصدر ديوانه الأول الذي حمل اسم: (قالت لي السمراء)، أن يخطف بقصائده الأضواء، وأن يسترعي الانتباه بقوة إلى تجربته الشابة، فطبع من ديوانه الأول في طبعته الأولى/٣٠٠/ نسخة لا غير.

وتضمن ديوان (قالت لي السمراء) رسومات تعبيرية ساذجة، بريشة الشاعر نفسه، بالإضافة إلى غلاف مثير يحمل صورة امرأة عارية الصدر، هذه الصورة الجريئة لم تكن تسمح بها تقاليد دمشقُ الصارمة في الأربعينات. لكن الشاعر أطلق

ديوانه الأول مستعيناً بهيبة السياسي السوري المحنك الدكتور منير العجلاني، الذي تفهم نفسية الشاعر الشاب وطموحاته المشروعة في عالم الشعر فكتب بمهارة فنية مقدمة ديوان (قالت لي السمراء) فكانت هذه المقدمة الرصينة، شفاعة للشاعر عند الجمهور المتلقي الذي صدمه – في البدايات – هذا اللون من الشعر الجديد.

ومن بعد صدور الديوان الأول، أصبح هاجس الشاعر، أن يلغي بقصائده الجديدة كل ما قاله شعراء العشرينات، والثلاثينات، والأربعينات، من غزل وغيره، وهي مهمة صعبة للغاية إذا لم نقل شبه مستحيلة. أقول أراد أن يلغي غزل أمير الشعراء أحمد شوقي، وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، والأخطل الصغير، وسعيد عقل، وذلك حين جعل شعرهم الرقيق، يبدو بالمقارنة مع شعره، قديم القالب ومحاكاة غير موفقة لشعر عباسي أو مملوكي أو أندلسي. وهنا تكمن المفارقة الإبداعية.

من الطبيعي أن ينجز (نزار قباني) خلال مسيرته الشعرية الطويلة، قصائد رائعة صنعت مجده، وأسهمت بصورة مباشرة في رفع راياته وبيارقه، محلياً وعربياً ودولياً، ليصبح فتى الشعر الأول. وهذا الكتاب سيجعل هذه القصائد الغافية على حلم الحقيقة، تعود إلى الذاكرة بقوة مرة ثانية، مع التذكير بردود الأفعال التي قوبلت بها هذه القصائد المثيرة للجدل، والتي قسمت الرأي العام العربي بين مؤيد ومستنكر... وبين ساخط ومحب إلى حد التوثين.

لقد ترك (نزار قباني) لديوان الشعر العربي ثروة أسطورية من شعر الحب الخالد، الذي أسعد الملايين، وما يزال هذا الشعر بقادر على إيقاظ عاطفة الحب في أجمل صورها. كما ترك شاعرنا الراحل القصائد السياسية الاستفزازية الواخزة، من أجل محاربة الظلم والخنوع، والتصدي لأنظمة الذل والهوان والقمع، لتسطع شمس العرب من جديد، بعد أن تندحر جيوش الظلام.

وكما ذكرت سابقا.. فقد كان (نزار قباني) ظاهرة مثيرة للجدل، لا مثيل لها في حياتنا الثقافية العربية المعاصرة. إذْ انقسم النقاد والقراء حولها. بعضهم يدين شاعرنا بقسوة ودون رحمة ويعتبره ظاهرة مرضية شاذة تعمق حالة اللامسؤولية في

الشخصية العربية، وتدعو في الوقت نفسه إلى شيوع الإنحلال الأخلاقي في المجتمع العربي. فمثلاً هناك من يقول إنه كان قبل نكسة الخامس من حزيران العام /١٩٦٧م/ من شعراء الغزل الحسي، إذاً لم نقل الماجن، وهو بذلك قد أسهم بصورة مباشرة في تشويه جيل من الشبان والفتيات!؟

وهذه فكرة ظالمة وخاطئة، على حد تعبير الناقد المعروف رجاء النقاش، ولكن ما هو المعيار الفني وما هو الميزان الدقيق في هذا الموقف؟

لقد عرفت كل الآداب العالمية هذا النوع من الغزل ولم تنكره ولم تتبرأ منه. فقد عرفناه نحن العرب عند (امرئ القيس)، و(عمر بن أبي ربيعة)، و(أبي نواس)، وغيرهم.. وكل كتب تاريخ الأدب العربي القديم والحديث، تذكر هؤلاء الشعراء وتحتفي بهم، ولقد كتب معظم نقادنا في الجيل الماضي عن هؤلاء الشعراء، كتب عنهم: عباس محمود العقاد، وطه حسين، وعبد الرحمن صدقي، وإبراهيم عبد القادر المازني. وفي الآداب الغربية نجد هناك (بايرون)، و(بودلير)، و (رامبو)، و(فيرلين)، وغيرهم من شعراء الغزل الحسي، وهم ليسوا بملعونين ولا مطرودين من رحمة أهل النقد والفكر، ولم تتبرأ منهم بلادهم، أو تسحب جوازت سفرهم..

ومن الاتهامات التي توجه للشاعر(نزار قباني)، أنه بعد أن خسر جيوش المراهقين والمراهقات، وشريحة واسعة من القراء الكبار، نتيجة نكسة حزيران المؤلمة، اتجه إلى الشعر السياسي، ليجلد ظهور الجميع دون هوادة: الحاكم والمحكوم، التاريخ والتراث، بالتوبيخ والشتيمة وغليظ القول، من أجل أن يلفت الأنظار إليه من جديد. فكانت قصيدته الشهيرة المدوية التي حملت اسم: (هوامش على دفتر النكسة) المستمدة من صميم الحياة العربية الراكدة والمليئة بالصور السلبية. وهنا نقول وبصوت عال:

ألا يحق للشاعر أو الفنان أو السياسي، أن يغضب وأن يتألم وأن يصرخ إلى حدّ الإعياء، نتيجة لهزيمة الخامس من حزيران التي زلزلت الوجدان العربي في المساحة الجغرافية الممتدة من الماء إلى الماء...

وفي هذا الصدد يقول (نزار قباني):

"إن وظيفة القصيدة هي خلخلة العلاقات القائمة بين الإنسان والكون.. لا تثبيتها و المصالحة معها.. كيف يمكن للشاعر العربي اليوم أن يتصالح مع واقعه؟ كيف يمكنه أن يكون شاهداً على الانتحار الجماعي العربي دون أن يبكي، أو يصرخ، أو يحتج، أو يرمي نفسه من الطابق التاسع والتسعين!؟ كيف يمكنه أن يبقى في صفوف المتفرجين!؟ ".

وسيلمس القارئ الكريم بنفسه كما أشرنا، أن لغة شاعرنا مبسّطة ومأنوسة، لا غموض فيها ولا تعقيد، كأن الشاعر يصغي بكل جوارحه إلى ما يقوله الناس في مجالسهم الخاصة، وفي المقاهي العربية، وفي مكاشفاتهم، وكأنه يسجل ما يعتمل في أفكارهم وما يجري على ألسنتهم، ثم يصوغ ذلك صياغة شعرية، ويحاول أن يجري على هذه الصياغة ما أمكنه من تعبير شاعري.

لذلك لم يكن شاعراً رمزياً. إنه يكتب الشعر ليفهمه أو يتذوقه: المواطن العادي، وربة المنزل، والمعلم، والطالب، والمقاتل، وسائق سيارة الأجرة، ورئيس مجمع اللغة العربية، وكل من تحرر من براثن الأمية.

هذه السهولة، السهل الممتنع، وتدفق الألفاظ الأنيقة كشلال هادر، أكسبت شاعرنا شهرة واسعة. كما وأن بعض أشعاره التي غناها العديد من الفنانين والفنانات العرب، بتشجيع من الشاعر نفسه لاعتقاده بأن الشعب العربي يقرأ بأذنيه من جراء انتشار الأمية، أسهما في زيادة نجوميته وشعبيته من المحيط إلى الخليج.

ولا تعني هذه الشهرة المدوية، بأي حال من الأحوال، الدليل المؤكد على عظمة شعره وخلوده، قد يكون هذا النجاح الساحق، ضد القيمة الفنية، وضد ماهية الشعر العظيم، وعلى حساب المضمون، ورسالة الشعر عبر عصور التاريخ. لكن شاعرنا الموهوب استطاع برهافة أحاسيسه، ورصده لما يجري حوله من أحداث وسلوكيات وصراعات، أن يلامس وجدان القارئ، الذي يبحث عن بارقة أمل تسطع من قلب الظلام، في مناخ يموج بالاضطرابات الحادة والقلق الوجودي المخيف.

وهنا نسجل بكل أمانة الكلمة وشرفها، هذا الاعتراف العلني، من قبل الشاعر نفسه ليكون مدخلنا لتذوق شعره السياسي ومعرفة طبيعته وسماته:

((أنا أعتقد أن التحول من شعر الحب إلى شعر السياسة ليس تجارة رابحة مطلقاً، فالنوم في عيون النساء أكثر طمأنينة من النوم بين الأسلاك الشائكة.. والإنسان الذكي هو الذي لا يسقط في بئر السياسة في بلادنا. إن مملكة الحب تبقى أسعد الممالك..

إن تحولي إلى السياسة، وأنا لازلت أصرّ أنه لم يكن تحولاً، كان نتيجة هزة داخلية، كسرت كل ألواح الزجاج في نفسي.. دفعة واحدة.. ومن نثارات الزجاج التي خلّفها حزيران، على أرض حواسي، صرخت بصوت آخر.

وأريد أن أؤكد أن شعري السياسي علقني على أكثر من صليب، وأكثر من حبل مشنقة. إن نصف الأنظمة العربية تقف من شعري السياسي موقف العداء والرفض، وتمنع كتبي من دخول أراضيها، في حين أنها كانت تدللني كشاعر حب وتفتح لي ذراعيها)).

وضمن هذا السياق العام، أشير هنا إلى ظاهرة النرجسية في شعر (نزار قباني) وشخصيته، وهي تهمة لا ينكرها الشاعر نفسه، بل اعتبر شاعرنا أن كتاب الدكتور خريستو نجم الذي حمل اسم: (النرجسية في أدب نزار قباني) الصادر عن دار الرائد العربي في بيروت، من أهم وأعظم وأصدق الكتب النقدية النزيهة التي تناولته بموضوعية. والنرجسي هو الذي يحب نفسه ولكنه أيضاً هو الذي لا يعرف كيف يحب نفسه، أو هو الذي لا يحب نفسه على الإطلاق. كما أن الحب الصحيح لا يعرفه النرجسي، وإذا عرفه فإنه لا يستطيع الحفاظ عليه ورعايته أمام تقلبات الزمن، فيأبى النرجسي التعامل مع المرأة إلاّ من خلال ثنائية العبد والمولى فهو السيد وهي الجارية.

وبصورة عامة فإن النرجسية حالة نفسية من نتائجها توثين الذات وتقديسها وعبادتها وإلغاء وجود الآخر واستبدادية الاتجاه. أليس (نزار قباني) هو القائل:

((أدونيس ليست له علاقة بالشعر، منذ أن راح يشتغل بالكيمياء: أي بالتنظير الأدبي)) ويقصد بالتنظير كتابه الشهير (الثابت و المتحول).

-((عبد الوهاب البياتي هو حكواتي الشعر العربي، والواشي الكبير، والمرأة المطلقة، وابن آوى الذي يهاجم في الليل أعشاش الشعراء ويسرق بيوضهم ويخنق فراخهم. توقف عن كتابة الشعر وقراءته منذ عشرين عاما. وأصبح عانساً وعاقراً وتفرغ ليشوي زملاءه

الشعراء على نار نفسه المريضة. لو كنت مسؤولاً لحاكمته بتهمة الفرار من الجندية.. ورمي الزبالة في الحدائق العامة!!)).

والذي يقرأ شعر (نزار قباني) يجد فيه أنه يتغنى بنبرة صوته وروعة جبهته، ورشاقة أصابعه وأناقة ثغره، وبجماله وبشهرته، وجاذبيته السحرية عند النساء. وبعبارة ثانية فإن شعره مرآة تنعكس فيها صورة الشاعر الجسمية فضلاً عن صورته النفسية، وشعوره المفرط بالعظمة والتفوق.

يقول نزار قباني:

"وصلتني رسالة من مواطن سوداني يطلب مني أن اسمح له بأن يسمي مولوده القادم باسم نزار طبعا وافقت. وكنت أزور منطقة جنوبية في السودان لا يوجد فيها شيء غير السوق الزراعية. تجولت هناك وإذا بي أرى فجأة ومن بعدي هرما هائلا" من النار. اقتربنا وإذا بولد في الرابعة عشرة من عمره يخرج من وراء الكوم الأحمر ويقول لي مرحباً نزار!؟ فقال المرافق كيف عرفت الأستاذ نزار؟ غضب الولد عند سماعه هذا الأخير وأجابه: أنا أتحداك وأتحدى معك الأستاذ نزار إذا عرفتم نزارا أكثر مما أعرفه فأنا لم أحفظ شعره فقط بل وحواراته الصحفية غيبا".

ويقول نزار فيما معناه:

((أنه قد باع من كتبه أكثر من عشرة ملايين نسخة عدا الطبعات المزورة. وأنه شاهد طفلاً يشتري مختارات من شعره، فسأله: عمو هل تحب شعري؟ أجابه طبعاً. فسأله من جديد: ولماذا تحبه؟ فقال الطفل: لأن شعرك يشبهني!.

وأنه تنكر مرة في ثياب امرأة، ليتمكن من الخروج بسلام من بين الجماهير التي جاءت للاستماع إلى شعره في وهران. وأن أجمل ما هزّه في بيروت أن سائقي سيارات الأجرة تضع شرائط تسجيل لشعره بدل الأغنيات)).

إن (نزار قباني) قد طبع على حب الاستعراض المسرحي، ويروقه الحديث عن نفسه، فهو يعتبر نفسه النجم السينمائي والشاعر في آن واحد. ومن حق الجمهور أن يعرف كل شيء عن نجمه المحبوب: اسم برجه الفلكي ولونه المفضل، والموسيقى المحببة إلى قلبه، والمطرب الذي يعجبه، وأسماء المطاعم التي كان يتردد عليها،

لتعلم الأجيال القادمة أن الشاعر جلس هنا.. ومرّ من هنالك.. فهوايات (النجم) وعاداته وطقوسه هي ملك للجمهور ومن حقه الاطلاع عليها، فلا غرابة أن يعمل(نزار قباني) على إبقاء اسمه مزروعا في ذاكرة الناس بكل الوسائل التي تتاح له، نذكر منها على سبيل المثال: نشر صوره العائلية والشخصية في العديد من كتبه، أو كتابة إحدى مجموعاته الشعرية بخط يده، أو عن طريق رواية حادثة قديمة من ذكرياته، حتى لو كانت هذه الحادثة أليمة وذات خصوصية عائلية بالغة السرية والحساسية.

يقول نزار قباني:

((أنا من أسرة تمتهن العشق. والحب يولد مع أطفال الأسرة كما يولد السُكَّرُ في التفاحة. في الحادية عشرة من عمرنا نصبح عاشقين، وفي الثانية عشرة نسأم.. وفي الثالثة عشرة نعشق من جديد.. وفي الرابعة عشرة نسأم من جديد.. وفي الخامسة عشرة من العمر يصبح الطفل في أسرتنا شيخا.. وصاحب طريقة في العشق...

جدي كان هكذا.. وأبي كان هكذا.. وأخوتي كلهم يسقطون في أول عينين كبيرتين يرونهما.. يسقطون بسهولة.. ويخرجون من الماء بسهولة.. كل أفراد الأسرة يحبون حتى الذبح.. وفي تاريخ الأسرة حادثة استشهاد مثيرة سببها العشق...

الشهيدة هي أختي الكبرى وصال. قتلت نفسها بكل بساطة وبشاعرية منقطعة النظير.. لأنها لم تستطع أن تتزوج من حبيبها...

صورة أختي وهي تموت من أجل الحب.. محفورة في لحمي.لا أزال أذكر وجهها الملائكي، وقسماتها النورانية، وابتسامتها الجميلة وهي تموت... كانت في ميتتها أجمل من رابعة العدوية.. وأروع من كليوباترا المصرية. حين مشيت في جنازة أختي.. وأنا في الخامسة عشرة، كان الحب يمشي إلى جانبي في الجنازة، ويشد على ذراعي ويبكي.. وحين زرعوا أختي في التراب.. وعدنا في اليوم التالي لنزورها، لم نجد القبر.. وإنما وجدنا في مكانه وردة..)).

ويلجأ شاعرنا الكبير في بعض تصرفاته إلى سلوك الغرابة، لأن الغرابة والخروج عن المألوف يزيد من شهرته عند الناس. من ذلك ما حدث العام /١٩٧٢/ إثر أمسية شعرية صاخبة له في طرابلس الشام. كان الشاعر خارجاً من القاعة والناس

يتدفقون حوله كالسيل، يريدون الوصول إليه بهدف السلام، حين برزت فجأة إحدى الصبايا الحسان، وكشفت عن ساقها أمام الجمهور وطلبت من الشاعر أن يوقع باسمه على ساقها. ولم يرفض الشاعر أو يستهجن هذا الطلب الغريب، بل أبدى تجاوبا ملحوظاً وسعادة فائقة في التوقيع.

وصفوة الكلام- على حد تعبير الدكتور نجم- أن شاعرنا كان واعياً (لأناه) الجسمي، مدركاً لوسامته، محتفلاً بملامحه، يعرف جيداً حسن وقعها في الناس. فاستثمر هذا الشعور في نتاجه متتبعاً قسماته وحركاته وأناقته، وكل ما يتعلق بمظهره أمام المعجبين والأنصار، في أماسيه الشعرية ومقابلاته التلفزيونية وصوره"الفوتوغرافية" المنشورة في الصحف والمجلات...

فأعماله إذن مرتبطة (بأناه الجسمي) قبل كل شيء. غايتها استعراض (نزار قباني) الفتى الوسيم الذي يطمح لتخليد رسمه بين الناس. وهو رسم لشاعر بلغ به الحرص على وسامته حد الهاجس، فأصبح متشبثا بالحب لأنه مرآة تجمّل ملامحه في عين نفسه وعيون الناس.

ونحن إذْ نقدم هذه المختارات الشعرية، ضمن تبويب جديد، فإننا نهدف من وراء عملنا الأدبي المنهجي، تعريف الجيل الجديد وعشّاق أدبه، ضمن إطار المناخ النفسي الذي ظهرت فيه هذه القصائد لأول مرة، على هذا التراث الشعري الخالد والمدهش معاً، لشاعر الشام الكبير، بل لشاعر الأمة العربية.